جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل العاشر "الحلقة" والخاتمة: رواية "الواقعة"

نشرة "الإنسان 2018/06/18
السنةالحادية عشرة – العدد: 3943

بروفيسور يحيـــــى الرخـــــاوي – الطب النفسي، مصر
yehiatrakhawy@hotmail.com

المكتب ينتظرنى فى الصباح، والسرير بما يحمل من مذلة وخزى فى المساء، ما بين هذا وذاك أموت غيظا وأنا أتابع الأستاذ غريب وهو مستغرق فى كتبه لـــِـيُـفـْــشِلَ كل الحلول قبل أن تبدأ

مقدمة

نواصل نشر فصول رواية "الواقعة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا الأسبوع الماضى.

وهذا هو الفصل العاشر والخاتمة.

*****

(رواية "الواقعة") (1)

الجزء الأول: من ثلاثية "المشى على الصراط"

الفصل العاشر: والأخير

"الحلقة"

لم أكد أضع رأسى على الوسادة حتى اجتاحت المظاهرات البلاد تطالب بالجلاء التام، أو الموت الزؤام وبوحدة وادى النيل، أنتقل من المدرسة الثانوية بدمنهور حتى كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول، يحملنى الطلبة على الأعناق مرة، وتفعصنى كتلة أجسادهم مرات، يترجع صدى الهتافات "الجلاء بالدماء" "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء"، أخطف خوذة شرطى وألعب بها الكرة، أتحمس للهتاف بوحدة مصر والسودان لأسباب خاصة" بيفين، بفين، يسقط بيفين"" صدقى الخائن، يسقط بيفين" تخرج الجموع إلى الشوراع وتجتاح كل المقاومة البوليسية وتتجه إلى كوبرى عباس، الناس تنضم إلينا بالمئات رجال النقراشى باشا يفتحون الكوبرى على الجموع فيتساقط الشباب بلاعدد، الجموع تدفعنى إلى الحافة، لا أكاد أهوى حتى أستيقظ مفزوعا قبل أن ترتطم رأسى بعوامة الكوبرى، تنقلب زوجتى إلى جنبها الآخر وتعطينى ظهرها كأنها تقول"على إيه يا فالح" ! أمط شفتى استهتارا كأنى لم أسمع، أشعل سيجارة، أستمر صاحيا، بقايا نقاش ميدان التحرير تحضرنى دون تفاصيل.

هل يمكن أن أصنع شيئا أنا شخصيا – عبد السلام المشد – لهذا البلد الآن؟ هل هناك أمل فى أمثالى؟ هل ينقذنى ذلك من بعض ضياعى؟ هل تـــَـبــــَــقَّـــى منى شيء يصلح لأى شئ؟

تأتينى الأجوبة كلها من داخلى بالنفى أو بالمعايرة أو بالسباب.

المكتب ينتظرنى فى الصباح، والسرير بما يحمل من مذلة وخزى فى المساء، ما بين هذا وذاك أموت غيظا وأنا أتابع الأستاذ غريب وهو مستغرق فى كتبه لـــِـيُـفـْــشِلَ كل الحلول قبل أن تبدأ.

تتردد فى ذهنى الاتهامات الصادقة التى وجهها إلى الطلبة والتى لا أعرف طريقة أمينة للرد عليها، "أنتم رضيتم الكذب وإلا ما سكتم"، أين السبيل حتى لا أسكت أنا شخصيا"عبد السلام المشد" أعيش فى هذا البلد فى هذه اللحظة من الزمان؟ هل نحن ميتون فعلا؟ هل صحيح أن الميت لا ينتحر؟

تمر أمامى كلمات مثل"الثورة و"الانقلاب"، و"الحرية"، كلما حاولت أن أترجمها إلى شىء محدد يخص"عبد السلام المشد" بلحمه ودمه ووظيفته فى الحسابات، وشقته ذات الثلاث غرف وهو يتقلب فى الفراش الآن خوفا من الارتطام بعوامة كوبرى عباس بعد أن فتحه النقراشى باشا (هكذا قالوا)، تذهب منى كل معانى الكلمات، ماذا كان على عبد السلام المشد أن يفعله حتى لا يتهمه هذا الشباب النقى بالصمت والسرقة والخيانة والكذب؟ وماذا يمكنه أن يفعل الآن؟ هذا العبد السلام المشد على وجه التحديد؟

تتردد فى ذهنى الاتهامات الصادقة التى وجهها إلى الطلبة والتى لا أعرف طريقة أمينة للرد عليها، "أنتم رضيتم الكذب وإلا ما سكتم

وددت لو أنى رجعت إلى هؤلاء المتحمسين أسألهم ماذا يمكن أن أفعل" أنا" شخصيا وبالضبط، الآن وليس بعد؟ أم أنها لعبة عيال وشطح أحلام؟

حتى لو كانت كذلك فهل يعفينى هذا من مسئوليتى وإحساسى بالعجز واليأس، هل أنا ناقص احتقار لذاتى حتى يتهمونى – شخصيا – بكل ذلك؟ وهم؟ ألا يهربون أيضا من عجز ما؟

– ولو، هم يمارسون الصدق، ولا يكفون عن المحاولة.

– لعب عيال، .. كل شاب منهم قد أطلق شعره ولبس المنطلون القذر الضيق، وجلس مع صاحبته ومقعداتهما متلاصقتان وراحا يلقيان التهم جزافا، ها هو الوغد الداخلى ينتهز الفرصة.

= ... أيقظوك غصبا عنك.

– أيقظونى لأفعل ماذا؟

= لتكون بشرا له إحساس حقيقى.

– بدلا من الموت عجزا وأنت تردد حكما زائفة.

– ولكنى مريض، والشعور بالعجز جزء من مرضى.

= "الآن تدعى المرض، فإذا جاء وقت العلاج تدعى الصحة".

– أنت مثلهم لا تكف عن الصياح ماذا تريدنى أفعل؟

= "تتحمل المسئولية وتسمى الأشياء بأسمائها".

– ضيعتنى حتى ضاعت منى الأسماء، أنسيتـــنى اسمى، جعلتنى أشك فى أنى أنا، والآن تريد أن أسمى الأشياء بأسمائها، أية أسماء وأية أشياء؟ ماذا تريد منى؟

وددت لو أنى رجعت إلى هؤلاء المتحمسين أسألهم ماذا يمكن أن أفعل" أنا" شخصيا وبالضبط، الآن وليس بعد؟ أم أنها لعبة عيال وشطح أحلام؟

= الثورة.

– ثرت على عجزى الجنسى وكدت أجن حين نجحت، ثم ماذا.

– أى عجز لا ينتهى إلا بثورة.

– ثم ماذا؟

– يوجد ألف طريق.

– لا ياعم، .عجز المرض وذل العلاج أرحم.

***

لم يبق أمامى إلا هذه المحاولة الأخيرة، تذكرت حديثى مع إبراهيم الطيب فى عيادة الطبيب الذى هربت منه قبل أن أراه، هذا الذى لاح لى ولم أعرف معالمه بعد.

أصبحت لا أستطيع أن أنكر رغبتى فى القتل أو الدعارة، فإذا نجحت فى السيطرة عليها بعض

الوقت عاودنى الصداع المتفجر أو الإحساس الميت، فإذا ما واجهت داخلى لحظات رعبت من التفتت أو الجنون، ناهيك عن المعايرة والسخرية،

ذهبت إليه هذه المرة وفى نيتى أن أحاول صادقا، فالحلقات تضيق علىّ والأمور تكاد تفلت من يدى حتى كدت أفقد السيطرة على بقية أجزائى، عرفنى الممرض وابتسم حين حاولت أن أعطيه كشفا جديدا وذكـــــرنى بأنى حجزت قبل ذلك، حمدت الله على أنه لم يسألنى عن سبب خروجى فى المرة السابقة، مع أنى كنت قد أعددت سببا وجيها للاعتذار، دخلت عليه فلم أجد ما يسترعى الانتباه، حين بدأ الحديث مباشرة بلا مقدمات أو استجواب أحسست وكأنى أكمل الحديث مع إبراهيم الطيب، وليس مع طبيب مختص، كان عاديا، وحكيت له عن مصيبتى السوداء،

–....هذا شىء يمر به أى إنسان يحاول أن يعيش بحق.

– ولكن حالتى قد وصلت إلى مراحل خطيرة جدا.

– كيف لك أن تميز درجة الخطورة، لابد من إعادة تحديد معانى الكلمات – هات ما عندك مباشرة.

(قلت فى نفسى لابد من تفجير سلسلة المفرقعات مرة واحدة بلا حذر أو حساب)

– رأيت فى أول المرض أمام عينى أحداثا وأشخاصا ثبت أنهم لم يتواجدوا أصلا، أظن أن هذه هلوسة لا تحدث إلا لمجنون.

– تكرر لغة أطباء يـــُســـَمـــِّعون الدرس.

– ولكنها الحقيقة.

–..... ثم ماذا؟

– أشعر أحيانا بقدرة جنسية هائلة حين أطلق لجنونى العنان، ثم أعجز عن واجباتى الزوجية خوفا من بيع نفسى لها.

–..... ؟

– أحيانا أحدث نفسى وكأنى عدة أشخاص.

– خطوة صعبة.

– ... تجربتى مرعبة وأنت لا تعرفها.

– ليس تماما.

– أنت، أنت شخصيا، هل رأيت شخوصا لا وجود لهم؟

– ما دمتُ إنسانا، مثلك، فأنا معرض لكل شئ.

– مثلى؟ قل لى من أنت؟

– أنا من ترى.

– هل أنت منا، أم منهم؟

– أفضل أن ترى بنفسك.

– حين دخلت وقابلتك داخلنى إحساس لأول وهلة أن الطبيب لم يحضر بعد، وحين رأيتك تنتقل إلى جوارى وتتحرك فى الحجرة أثناء الحديث وتضحك بلا تردد زاد شكى... حتى كدت أخرج إلى الممرض لأتأكد أنك الطبيب، وأنك لست واحدا منا دخل مكتب الطبيب خلسة ليخدع أمثالى مثلما نشاهد فى مسرحيات هذه الأيام، أرجح أنك"منا".

– .... لا مفر من المحاولة.

ضيعتنى حتى ضاعت منى الأسماء، أنسيتـــنى اسمى، جعلتنى أشك فى أنى أنا، والآن تريد أن أسمى الأشياء بأسمائها، أية أسماء وأية أشياء؟ ماذا تريد منى؟

أشعر أحيانا بقدرة جنسية هائلة حين أطلق لجنونى العنان، ثم أعجز عن واجباتى الزوجية خوفا من بيع نفسى لها

– حاولت ولم أنجح، تصورت أنى من كوكب آخر وأن لى شبيها إنسانيا يلعب دورى البشرى على هذه الأرض، حاولت أن أتفرج فى مساحة من السماح، لم أنجح، هل نجحت أنت؟

– نجحت؟ فى ماذا؟

– في"الفرجة" على البشر ثم خداعهم بالتصرف مثلهم؟

– الفرجة عار الرؤيـــة، الحياة شىء آخر!

هذا كلام سهل فارغ، البلد محتل والجوع والخراب على الأبواب والذل والمهانة تتغلغلان فى خلايا كل إنسان حى، أين هذا الرجل من كل هذا؟ أكمل هو دون تردد.

– نحاول سويا ونبحث سويا.

تذكرت إبراهيم الطيب.

– نبحث سويا ماذا ؟.

– نبحث عن طريقة؟

أنا أبحث عن أفضل طريقة للهرب.

(أنا هارب من شباب التحرير، لأختبئ فى لعبة العلاج)

– الهرب حق إنسانى، نحن نهرب إلى ما يمكن حتى نستطيع ما لا يمكن.

– الأستاذ غريب يلعب لعبة البحث الدائرية.

– من "غريب" هذا، لعله يبحث وحده؟ بلا تجربة؟ ولا آخرين؟

أحسست أن الحديث ينزلق بنا إلى مناقشات لا تحل ولا تربط"، كنت أتمنى أن يكون العلاج خدعة تعفينى من المسئولية مثل المرض تماما، هذا الرجل يملؤنى غيظا، يلوّح لى بعلاج ما، ليس علاجا بل لست أدرى ماذا؟

قررت أن أبدأ بالهجوم الاستطلاعى بلا لف أو دوران، سآخذ من ذقنه وأفتل له، أين هو فعلا من الناس والآخرين.

– والبلد؟

سكت وكأنه أدرك إلى أى منطقة أستدرجه، ثم قال:

– البلد هى أنا وأنت،

– ماذا تصنع أنت للبلد وهى تغلى وتـــــُـــــذَلّ؟ هل عندك غير الفرجة والكلام وجمع النقود؟

أطرق حتى كاد العرق يتفصد من جبينه.

– لا أعرف على وجه التحديد، ولكنها محاولات مستمرة للإتقان لا أنكر شعورى بالعجز، فتزيد محاولاتى لاختراقه معكم.

تذكرت عم محفوظ، ذهبت لأتبرك به فقذف إلىّ الكرة هذا الطبيب يعلن حيرته وعجزه ويطلب منى المساعدة.

– جئتك لأتخلص من الألم، لا لأزداد ألما وحيرة.

– لا أخدعك، ليس عندى إلا ما قلت.

– الألم العاجز ساحق، وهو وقود الجنون لا الثورة.

– لا أعرف سبيلا آخر، لك ولنا.

– جئتك لأهرب من العار الذى أيقظه فىّ هؤلاء الطلبة المهووسون، عار بلد محتل، لا بد وأنى أخطأت الطريق.

الهرب حق إنسانى، نحن نهرب إلى ما يمكن حتى نستطيع ما لا يمكن

كنت أتمنى أن يكون العلاج خدعة تعفينى من المسئولية مثل المرض تماما، هذا الرجل يملؤنى غيظا، يلوّح لى بعلاج ما، ليس علاجا بل لست أدرى ماذا؟

– يجوز.

أقفل هذا الرجل المدعى أمامى أبواب الهرب قبل أن أفتحها، كلما وصلت إلى ما يبرر عجزى، ألقى فى وجهى القفاز، يثير فىّ الرغبة فى العراك، جئته يساعدنى وإذا به وكأنه يطلب المساعدة، لست متأكدا من صدقه، لكنه يذكرنى بموقف "عم محفوظ"، أحاول أن أختفى منه تحت سابع أرض فأجده ينتظرنى هناك لأحلق معه فى السماء السابعة.

أية مصيبة أن تكون رحلتك بكل هذه المشقة من أعمق درجات الضياع إلى أعلى درجات المسئولية، هذا ليس طبا، لا بد أن هذا الرجل أجن منى، ومن المرأة السودانية، ومن كل جنون الأرض والسماء، أو أنه كذاب هارب لا أكثر، هل عرف كل شئ؟ هل هو سيفرض علىّ معرفته هذه؟ هل هو يقتل وحدته برفقة أمثالى؟ لحساب من؟ من هو على وجه التحديد، وكيف عرف كل ذلك؟ لو كانت معرفته من الكتب لعرفها كل المختصين هذا التخصص ولصادرت الحكومة هذه المهنة؟ هل مر بمثل ما نمر به ثم اختبأ فى ثوب طبيب؟ قلت له وأنا أحول دون أفكارى حتى لا تظهر كما خطرت لى:

أية مصيبة أن تكون رحلتك بكل هذه المشقة من أعمق درجات الضياع إلى أعلى درجات المسئولية

– وهل هناك أقراص وألاعيب مثل الآخرين؟

– كل شىء ممكن.

صمت، فصمت.

مضى وقت طويل طويل حتى عاودنى رعبى القديم.

كنت أخاف العقاقير فقط فأصبحت أخاف الشفاء من أى نوع، قرب الشفاء منى أخطر علىّ من كل احتمال آخر، لا بد من وقت للتفكير قبل اتخاذ قرار قد يكون بلا رجعة، انصرفت وأنا أحاول أن أتهم هذا الرجل بالجنون والهرب والارتزاق من جديد.

***

كلما مرت الأيام ازدادت حاجتى إليه وازداد خوفى منه، مجرد علمى بوجوده "هناك" كان يطمئنى بشكل ما، حتى أنى كنت أحوم حول عيادته لأطمئن أن سيارته بالباب، ثم أنصرف قبل أن أضطر إلى العودة لزيارته، لا، .. ليس هذا هو حلى أنا، حتى لو كان هو حله هو، لا توجد قوة على الأرض يمكن أن تستدرجنى إلى أن أغامر هذه المغامرة المرعبة.

كنت أخاف العقاقير فقط فأصبحت أخاف الشفاء من أى نوع، قرب الشفاء منى أخطر علىّ من كل احتمال آخر، لا بد من وقت للتفكير قبل اتخاذ قرار قد يكون بلا رجعة، انصرفت وأنا أحاول أن أتهم هذا الرجل بالجنون والهرب والارتزاق من جديد

أين البديل؟

الشعور بالعجز يزحف علىّ فى كل مجال رغم نجاحى الظاهرى فى مجال العمل واختفاء أغلب الأعراض، واستسلام زوجتى يأسا أو انتظارا لفرج يأتى من المجهول.

لا أستطيع أن أنسى: لا حديث الطلبة فى ميدان التحرير ولا حديث الطبيب الذى أكاد أجزم بجنونه، ذهبت إليه أريد التخلص من هم هذا البلد الذى أحاط بى دون ذنب جنيته، فما عمرى اشتغلت بالسياسة ولا فكرت فى ذلك، ومع ذلك أشعرنى أنى المسئول الأول والأخير، كنت أحسب أن الطبيب سيـُرجع لى عقلى ويقنعنى بأن كل هذا كلام خادع، فإذا به يحملنى هم الإنسان فى كل مكان.

***

يخطر ببالى أحيانا أن خير سبيل لاستعمال جنونى بشكل"خلاق" كما يقولون – هو أن أنمى تجربتى مع المرأ ة السودانية، أحيى العظام وهى رميم، أخترق أسوار النساء اللاتى يخفن المتعة وينكمشن وراء التردد والبرود، هذا عمل جليل أفضل من هتافات الطلبة وكلام هذا الطبيب المجنون، يرسم لى خيالى أحيانا صورة لعلاقات راسبوتينية تسبح فى أنهار اللذة والخدر، ربما وجدت بذلك حل الإنسان الجديد بأن أصنع نسلا أرقى من خلال الجنس المجنون.

***

أحسست أنى أنتهى إلى وضع قريب مما وصل إليه الأستاذ غريب، أنا أنتظر شيئا مجهولا أتصور أنه يمكن أن يتم بين يوم وليلة، شىء يهبط من أعلى أو تتفجر عنه الأرض، شىء يجيب على الأسئلة الحائرة ويضع حلا لكل هذا الضياع، هل هى عدوى من غريب أم أننى فهمته خطأ، غريب لا يكل من الانتظار ولا يستعجله، هو يستطيع أن ينتظر طول الدهر.

– هيه؟ ماذا وجدت يا غريب؟

– التاريخ يعيد نفسه.

– وهلى نعيش – أنت وأنا – فى التاريخ الذى يعيد نفسه، أم أننا خارج دائرته.

– وعينا به هو الذى يصور لنا أننا خارج دائرته.

– نكف عن الوعى أم نستسلم بإرادتنا فى دائرة التاريخ الذى يعيد نفسه؟

– لا أعرف، أنا أبحث وأنتظر.

– طال انتظارك يا غريب.

– لن أخدع نفسى بالحلول الجاهزة.

– عرض على مؤخرا حل جديد بعد أن خفت مثلك من الحلول الجاهزة.

– أى حل تعنى؟

– علاج جديد، يسميه صاحبه بحث مشترك؟ أو رفقة طريق،" أو علاج جمعى" وهو يتحدث بألفاظ مغرية ولكنه لا يعطى ضمانات، وليس له معالم.

قال بانزعاج وحذر:

– تقول علاج؟ وهل أنت مريض؟

فوجئت أنى لم أذكر له، إلا تلميحا، ربما، طوال هذه المحاولات عبر شهور وشهور لم أذكر له، أى شىء عن تجربتى مع المرض والأطباء.

– اختلفت الأسماء، أشعر أن الحال لا يمكن أن تستمر على هذا الوضع،

– وماذا قال لك هذا الطبيب؟

– هذا آخر ما يهم، فقد خيل إلى أنى وجدت أفلاطونا عصريا، أو مجنونا هاربا من المستشفى.

– هذا طريق خطر ستسجن نفسك فيه بقية عمرك.

– أنا سجين أصلا.

– العلاج زنزانة مفردة بفتحة واحدة، عليها سجان غبى.

– من أدراك يا غريب؟

– لى خبرة فى هذا السبيل ظننت يوما أنى مريض، وترددت على كثير منهم حتى أنقذنى أحدهم.

– أنقذك؟ كيف؟

– واحد ذهبت إليه بعد أن كدت أعتقد أنى مجنون فإذا به يرجع لى حريتى، ويدعنى وشأنى، واقتنعت من خلال صدقه أن من حقى أن أكون كما أشاء حتى لو كنت مجنونا، لن أنسى جميله ما حييت فقد استعدت حريتى وبدأت حياتى.

– بدأت ماذا؟

– حياتى الخاصة الحرة تماما من أى أوهام بالمرض أو بالعجز.

– .... أو بالعجز، !!! تحت زعم الانتظار المؤبد؟.

الشعور بالعجز يزحف علىّ فى كل مجال رغم نجاحى الظاهرى فى مجال العمل واختفاء أغلب الأعراض، واستسلام زوجتى يأسا أو انتظارا لفرج يأتى من المجهول

أن خير سبيل لاستعمال جنونى بشكل"خلاق" كما يقولون – هو أن أنهى تجربتى مع المرأة السودانية، أحيى العظام وهى رميم، أخترق أسوار النساء اللاتى يخفين المتعة وينكمشن وراء التردد والبرود

قال متجاهلا تلميحى:

– نعم، ..

– وهل ما أنت فيه هو الحياة الحرة بلا عجز؟ هل هذا هو الحل.

– وهل خــلقنا لننتظر؟

– ليس ذنبنا أننا خلقنا، ومن حقنا أن ننتظر.

– لكنى لا أستطيع.

– ولكنى أستطيع.

– كيف أنتظر والعجز يسيطر على كل كيانى؟

– لماذ تــسميه عجزا؟

– ماذا تسميه أنت؟

– سمه ما تشاء: الحكمة، أو الحرية، أو عين العقل،

– والبلد؟

– ما لها؟

– هل يمكن أن تنتظر الفرج بنفس الطريقة إلى مالانهاية؟

– الحل فى النظرية،

(قفز عقلى الآخر يعاود نشاطه فجأة قائلا" النظرية فى النملية". نهرته بلا رحمة)

– أيه نظرية يا غريب؟

– النظرية المتكاملة.

– ولو أصبحت يوما فوجدت اليهود يسيرون فى الشوارع.

– لست قائدا للقوات المسلحة، ولا رئيس جمهورية.

– يا نهار أسود يا غريب، هل تعنى ما تقول؟

– لن أخدع نفسى.

– ولو اعتدوا على نسائنا وحرماتنا.

– ليس لى نساء ولا حرمات، أنا حر تماما.

ضبطت نفسى بأقصى ما أملك مما تبقى لى من عقل وواصلت.

– وثورة الطلبة فى ميدان التحرير؟.

– وها هم أولاء قد عادوا إلى الدراسة مثل كل عام، قصة مكررة .

– أنا لا أصدق حرفا مما تقول، أنت تشوه كل شىء حتى تستمر كما أنت، ألا تحسب أن علينا أن نحارب؟

– لا أمل فى الحرب، ولا فى السلم.

انصرفت مليئا بالغيظ، ولكنى كنت أعيد التفكير فيما قال، ...

***

اقترب منى الأستاذ أسعد صباح الأحد وأنا جالس على المكتب.

– هل سمعت البيان رقم 5؟

– سمعته، ولكن من يدرى فكم سمعنا بيانات؟

– هل تشك فى جدية ما يجرى؟

علاج جديد، يسميه صاحبه بحث مشترك؟ أو رفقة طريق،" أو علاج جمعى" وهو يتحدث بألفاظ مغرية ولكنه لا يعطى ضمانات، وليس له معالم

– مازلت أذكر 67 ولا أقوى أن أعيش نفس الأحداث والمشاعر،

– الأمر مختلف، نحن الذين بدأنا الهجوم.

– مؤتمر"السلاطة" سنة 67 مازال يخايل ناظرىّ.

– الحرب دائرة من الثانية ظهر أمس، والعبور كاد يتم،

– صوت أحمد سعيد يرن فى أذنى مساء يوم الاثنين المشئوم من ست سنوات"سقط المكبر يا عرررررراب"" سقط المكبر يا عرب" حتى حسبنا أن الحرب ستنتهى فى ساعات، وكلما رن صوته فى أذنى بعد ذلك ضحكت حيث تبينت أنه كان يعنى أن الميكروفون، هو المكبــّر الذى قد سقط من يده، لا أكثر.

–هل هذا وقت سخرية يا أستاذ عبد السلام، ارفع رأسك يا أخى.

– حاسب من رفعها أكثر من اللازم حتى إذا سقطت لا تنكسر منك.

– أنت انهزامى متشائم،.

– سوف أصبح أول المناضلين فى اليوم السابع من الحرب.

– ولماذا السابع؟

– لا أنسى الأيام الستة.

– الأمور اختلفت.

– لست متأكدا.

– أنت حر، لكننا نحارب.

***

قال الأستاذ نصحى فى حكمة تحليلية:

– هل رأيت يا عبد السلام، فشل التقمص بالمعتدى؟

كدت أصعق وتساءلت فى استطلاع خبيث:

– فشل ماذا؟!

– اليهود تقمصوا النازى ولا بد أن ينتهوا نفس النهاية،

تعجبت من أن فكره التحليلنفسى، لا يهمد أبدا، قلت فى إثارة:

– وهل اليهود مرضى مثلى (لم أقل، .. ومثلك)

– مرضى ومجانين أيضا، قل ما شئت فى شذوذهم وعقدهم،

قلت متماديا فى الفكاهة الخبيثة حتى أخفف من توترى وأنا أتمتع بتتبع تعصبه وحماسه التحليلى ونحن فى "عز الحرب".

– وحكاية الجنس، الله يفتح عليك؟

– طبعا وما الحرب إلا مظهر جنسى.

تذكرت لفورى المرأة السودانية، لماذا تطل على هذه الصورة فى مثل هذه الظروف؟ طردت الصورة بسرعة قائلا:

– اسمع يا أستاذ نصحى ادع معى بالاستمرار مهما كانت النتائج.

البيانات تتوالى ومعارك الدبابات متواصلة، مر اليوم السادس ومازلنا نحارب، عاد لى شعورى بالحياة بشكل لا يوصف، هذا هو.

قالت زوجتى كأنها ترقص بعينيها.

واحد ذهبت إليه بعد أن كدت أعتقد أنى مجنون فإذا به يرجع لى حريتى، ويدعنى وشأنى، واقتنعت من خلال صدقه أن من حقى أن أكون كما أشاء حتى لو كنت مجنونا، لن أنسى جميله ما حييت فقد استعدت حريتى وبدأت حياتى

– الحرب يا عبد السلام.

قلت وأنا ممتلئ بكل شئ.

– أخيراً.

– الحمد لله.

– ربنا يتمم بخير.

رأيتها كما لم أراها من قبل، اقتربت منها دون تردد، ضحكنا بعد أن نجحنا وكأننا عبرنا القنال معهم وحطمنا خط بارليف.

قلت لها مازحا منتشيا:

– سيولد فى عهد الحرية.

***

خاتمة، .....

صفقت الباب خلفى ودخلت هائجا أريــد أن أحطم أى شىء فى طريقى. كاد غريب يقفز من صوت ارتطام الباب، ولكنه كالعادة – سرعان مازاد شحوبا وهو يتمالك نفسه، كان ذلك مساء الأربعاء المشئوم.

قلت فى غيظ قاتل:

– أمازلت تنتظر يا غريب ؟؟

سكت بلا أية نية فى العراك، ولمحت لأول مرة الدموع تتساقط من عينيه فواصلت:

– كتب علينا أن نعيش كل بضعة سنوات هذه المسرحية المعادة، الذل – الأمل – المحاولة – الخيبة – الكذب – الموت.

لم يرد وزادت دموعه حتى كدت أهزه من منكبيه ليرد على ولا يدعنى وحيدا أكلم نفسى:

–... فقد كنتَ معنا يا غريب طول الوقت وأنت تتصنع الوحدة واللامبالاة.

رفع حاجبيه وكأنى ضبطه متلبسا بعدم الوحدة.

– لا داعى للكلام.

– ولا إمكانية للعمل.

– انتهى كل شئ.

– وبدأنا الصراخ والاستجداء.

–...هل سقطت السويس حقا؟ ما حكاية الثغرة؟.

– وحوصر الجيش الثالث.

– القصة مكررة.

–لم تصدقنى حين قلت لك إن التاريخ يعيد نفسه.

ثرت بلا قصد:

– ولكنا حاربنا يا غريب.

– العبرة بالنتيجة.

– الحرب لم تنته.

– سنقبل وقف إطلاق النار، ثم نبدأ الحديث من جديد عن النكسة الثانية والخيانة،

– لو حدث هذا فنحن نخون أنفسنا بالاستمرار فى هذه الحياة،

قلت متمادياً فى الفكاهة الخبيثة حتى أخفف من توترى وأنا أتمتع بتتبع تعصبه وحماسه التحليلى ونحن فى "عز الحرب".

– وحكاية الجنس، الله يفتح عليك؟

– طبعا وما الحرب إلا مظهر جنسى

– ماذا تعنى؟.

– إما أن نعيش أو نموت، ..،نعم أو نموت، فاهم!!؟.

قال لى وكأنه يحاول أن يرجع إلى قوقعته قسرا ولكن دون حماس

– أو ننتظر؟.

– ماذا تقول؟ ما هذا؟

* * *

خرجت إلى الشارع مباشرة بعد أن نظرت إلى باب شقتى نظرة أخيرة، لم أجرؤ على الدخول لتقبيل أولادى فى هذه الساعة، كنت أسير فى الشارع بخطى عجلى وكأنى أخشى أن يفوتنى قطار ما على وشك الرحيل، كان قرارى واضحا بلا غموض، عجزت عن الحياة مثل الناس، وها هو ذا العار يقضى على بصيص الأمل الذى تخايلت به من أيام،

وقفت فى منتصف كوبرى قصر النيل، الهواء البارد يصفع وجهى يذكرنى بالحياة رغم قرارى بانهاء كل شئ، نظرت إلى الماء الساكن كالبركة الحزينة بلا أمل فى فيضان أو حتى طوفان، اقترب وقع أقدام الحارس منى، مازال يظن أن الحرب قائمة، مخدوع غبى، لن أرد على ندائه، لا يستطيع أن يلحق بى.

مصيرى فى يدى لأول وآخر مرة بلا حاجة إلى ادعاء المرض، أو استشارة طبيب،

ارتد بصرى إلى الماء الساكن، وشعرت براحة عميقة، وانا أقفز لأتخطى الحاجز وأسرع إلى نداء الماء من تحتى وألتفت للوراء خوفا من أن يكون الحارس قد رآنى فيحاول أن يلحق بى.

* * * *

انتهت رواية "الواقعة" الجزء الأول من ثلاثية "المشى على الصراط" ويليه الجزء الثانى "مدرسة العراة" من نفس الثلاثية وهو الذى سوف نبدأ نشره الأسبوع القادم بنفس المعدل:

فصل يوميا لثلاث أيام متتالية: (السبت/الأحد/الأثنين) وذلك على لسان من شارك فى هذه الخبرة المكثفة لما يسمى "العلاج الجمعى" بما فى ذلك عبد السلام المشد وفردوس الطبلاوى زوجته وجارهم غريب الأناضولى حتى إبراهيم الطيب الذى التقاه عبد السلام فى عيادة الطبيب الأخير الذى يمارس هذا العلاج.

وأرجو أن يكون فى ذلك ما يشجع الأصدقاء على المتابعة ببطء

والمشاركة بما تيسر !!

مصيرى فى يدى لأول وآخر مرة بلا حاجة إلى ادعاء المرض، أو استشارة طبيب، ارتد بصرى إلى الماء الساكن، وشعرت براحة عميقة، وانا أقفز لأتخطى الحاجز وأسرع إلى نداء الماء من تحتى وألتفت للوراء خوفا من أن يكون الحارس قد رآنى فيحاول أن يلحق بى

إرتباط كامل النص:
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD180618.pdf

*** *** ***

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني http://www.arabpsyfound.com

شـعـار: انجـازات اربعـة عشـرة عامـا مـن الكـدح "

(التأسيس العام 2000 الاطلاق على الويب العام 2003)

الكتـــاب السنـــوي الرابـــع

تحميل الكتاب

http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet14Years.pdf